الكتب

عودة الروح

بين العامية والعربيـــة

— ١ —

أشهد أن الاستاذ توفيق الحكيم مؤلف متعب وكاتب ليس بالسهل ولا باليسير، وما عليك ان لم تلحق غباره أو تلم بجميع نواحيه، ويخيل الى أنه كقمة افرست الشامخة ترسل اليها البعثات من آن لآن، ويرتادها الرواد من شتى جنباتها يحاولون الوصول الى ذلك السمو وارتقاء ذلك الارتفاع الشاهق، ويهيئون لذلك الوسيلة ويأخذون للامر أهبته وعدته، ثم يعودون ليكتبوا عنها المجلدات الضخمة ويضعون فى وصفها الاسفار المسهبة، وما يزال اكثرها مجهولا فى طى الخفاء، بعيدا عن الثابت من اليقين الذى لايقبل الشك، وتضيع كل الجهود أمام ذروة هذه القمة هباء.

أثارت «أهل الكهف» للاستاذ المؤلف ما أثارت، وأوسع لها النقد الرحاب وهتف لها اكبر الكتاب وأئمة النقاد فى البلد، وارتفع توفيق الحكيم كالطود الشامخ فى مثل لمح من البرق خاطف، وأصبح اسمه ملء الاسماع والابصار، ولما يقدم الا رواية واحدة أو قل كتابا واحدا من مجموعة ضخمة يخايل بها الناس ويضن عليهم بها.

ثم نشر قصته « عودة الروح » فدلت على ناحية جديدة من نواحى كفاية هذا الشاب المؤلف، وعلى معين جديد يغرف منه توفيق الحكيم فى حكمة ومهارة. ودقة واستنباط، لست تدرى كيف تصفها ولا كيف تصورها صورتها الحق من الجمال والفن

و « أهل الكهف » و « عودة الروح » كتابان جد مختلفين، فالأول قصة قديمة، اوقل اقصوصة دينية صاغها المؤلف فى حذق ومهارة وأتى فيها بكل طريف مبتكر مما قدره النقد وجعله يرفع الكاتب لأول وهلة الى عليين، لانه لم يكن بد مما ليس منه بد، والثانى شدما يختلف عن الاول كل الاختلاف ويفترق عنه فى جوهره ولبابه، وان شابهه فى تفصيله وحبكه، فعودة الروح قصة مصرية، عريقة فى مصريتها، كتبها توفيق الحكيم عن الأشخاص الذين تراهم كل يوم او تسمع بهم مطلع كل شمس، فقدمهم اليك فى صورتهم الحقة التى تعرفها، أوتحسها ولا تكاد تنكرها، بل ما تراها حتى تتعرف اليها وترى فيها الصورة الصادقة التى تتخيلها، وهى ليست الا اشخاصا من صميم المجتمع المصرى أدار المؤلف قصته حولهم، وقدمهم اليك فى لباقة ومهارة ونفث فيهم من روحه القوى المؤاتى، كما نفث فى أهل الكهف من قبل، واذا بهم أحياء يسعون ويتحركون، يتعاطون من الوان الحياة ويعانون من ضروبها ما يمر بالكائن الحى كل ساعة وكل يوم، فاذا هم ليسوا تصوير المخيلة ولا وهم القريحة بل اناس من لحم ودم، محببين اليك، مقربين منك. لانك لاتجهلهم ولست بالغريب عنهم، بل لطالما رأيتهم وتحدثت اليهم وسمعت من أنبائهم واخبارهم الكثير، وكل ما هناك أن المؤلف انتزعهم من اللحم والدم وضمنهم كتابا من اسطر وكلمات، ولكن ما نزع منهم الروح ولا حرمهم الحياة، فانهم ليحيون حياة موفورة ناضجة، بل كانهم استمتعوا بدنياهم مرتين، مرة فى الحياة الحقة ومرة بين جلدتى كتاب. وما ندرى أى الحياتين كانت عليهم أجدى ولذكرهم أخلد وأبعد أثرا.

على أن « عودة الروح » أثارت لغطا واثارت نقدا هجاها ونال أو حاول النيل منها. أو قل على الاصح أن لغة « عودة الروح » هى التى أثارت هذا اللغط واثارت هذا النقد، فما قرأنا حتى اليوم كلمة هجاء او قدح فى الرواية ذاتها، ولعلها فوق ان يتناولها الناقد بالذات، أو انها تسمو فى صميمها عن اللغط، فما كان بد لمن أراد ذلك ان يتناول المظهر ويترك الأصل والجوهر، فلا يطرق بابا يعلم انه لايستطيع ان يلجه فى سهولة ولا فى عسر، مهما جهد أو وسعت له الحيلة

على أن هذا اللغط الذى اثارته القصة كان خليقا أن يثير مناحى من التفكير ليست فى الحق جديدة، وليست مما لم يتناوله الكتاب بأقلامهم قبل اليوم، ولكنها تعاد اليوم فى صورة رحبة فسيحة الجنبات، وتنتهز لها فرصة هى ولا شك أفشل الفرص وأقربها الى خيبة المسعى، وأدناها الى قطع الرجاء. وعندى ان انصار العامية — وما أعرف موقفى منهم على وجه الدقة — ما كانوا يرحبون بفرصة عارضة كهذه الفرصة السعيدة، تثار فيها قضية العامية والعربية من جديد ويكون مثار النزاع ومركز الشجار حول «عودة الروح»

قرأت هذه القصة منذ شهرين فما طلعت شمس يوم الا وفى نيتى ان أكتب عنها ، وما دخل ليل الا وقد هيأت الورق والقلم ، ولكن تمر الايام والليالى وانا متهيب أو كالمتهيب أن آخذ فى حديث عن هذا الكنز فأغفل عن درة من درره ، او تفوتنى جوهرة من جواهره ، أو كأنى وقد شغلنى حديث — أبطال القصة — محسن وسنية وسليم وعبده وحنفى وزنوبه ومبروك طوال هذا الزمن ، استطبت الحياة مع هؤلاء الأصدقاء الجدد ، واستعذبت حديثهم واسترحت الى مايعرضون على من قصتهم وحوادثهم ، والوان شخصياتهم الطريفة البديعة ، فنسيت معهم كل شىء ، اوحرصت على هذا النسيان ولم أشأ لنفسى ان أحرمها هذا الحلم الجميل ، فطال وطال حتى لم يكن بد من يقظة ولو مؤخرة

وكان لزاما على ان احدث القراء حديث هؤلاء الابطال وما وقع لهم بالتمام والكمال ... ولكن هذا اللغط الذى ثار حول لغة الرواية لم يكن ليمر دون أن يثير — كما قلنا — كثيرا من التأمل وكثيراً من التفكير ، وكان أولى ان يتقدم فيه القول قبل ان ندلى برأى او كلمة فى القصة نفسها ، وانى لأسأل على دهش منى وعجب ليس بالقليل : أيهما احق بالالتفات والنقد . . . ألمظهر أم الجوهر ؟ ألثوب أم لابسه ؟ ألقصة أم لغتها ؟

أفهم ان يتناول كاتب قصة ، ينقدها ما شاء له النقد ، ويمدحها او يهجوها ما شاء له المدح او الهجاء ، وما شاء له ذوقه الشخصى وكفاياته واطلاعه ومقاييسه الأدبية ، أفهم هذا وأستسيغه ، واذا ما انتهى الناقد من القصة ذاتها وشاء ان ينقد لغتها واسلوبها من حيث اللغة نفسها فلا جناح عليه ، بل لعله المقصر إن لم يفعل إن كان من الخبيرين بهذه الناحية المشهود لهم بالاحسان فيها ، اما ان أدع القصة جانبا فلا أتناولها بخير ولا بشر ، ولا أقول فيها كلمة لينة أو عسيرة ، ثم أقفز قفزة — يالها من قفزة — فآخذ بتلابيب المؤلف لانه كتب بالعامية ولم يكتب بالعربية ، فهذا الذى لا يفهم ولا يستساغ ولا يكاد الانسان يلوكه فى فمه ويجد له طعما أو مذاقا

أيهما الأصل ؟ ألقصة أم لغتها ؟ وأعنى اللغة التى كتبت بها القصة كائن حى خارج عن دائرة اللغة لانها أى — القصة — موجودة لها كيانها وذاتيتها كتبت ام لم تكتب ، وهذه الحياة التى احياها انا وأنت وغيرنا من خلق الله لا يستطيع انسان — على ما اظن — أن ينكرها ، وليست هذه الحياة الاقصة من مئات الملايين من القصص ، لاينقص وجودها ولا يقل من ذاتيتها كتابتها باللغة العامية أو العربية أو الفرنسية أو الانجليزية أو اية لغة من لغات العالم ولا استثنى الهيروغليفية ، فقصة « عودة الروح » ليست الاحدى قصص هذه الحياة التى تزخر بالملايين من شبيهاتها فهل نمحوها من الوجود وننكر الاعتراف بوجودها لانها لم تلبس لنا ثوب اللغة الفصيحة

وما قيمة هذه الحياة — هذه الحياة التى تتمثل فى اقصوصة — اذا كنا لانتعرف اليها ولانعترف بها الا فى اسموكنج أو الفراك ؟! فاذا طالعتنا فى زيها الحق ، فى ذلك الجلباب الفضفاض والسروال العريض انكرناها ومررنا بها سراعا غير آبهين أو ملقين النظر ؟ ان فى حوانيت الحائكين آلافا من هذه البذلات الانيقة الموشاة بالحرير والدمقس ولكن يعيينا أن نلمس فى طياتها حياة أو فى أردانها قصة ؟ ! وما علينا بالله لو عنينا بالقصة فى ذاتها فهى ليست مما يستطيعه كل انسان وتركنا هذه البذلة جانبا وهى مما فى مقدور كل حائك ؟ !

ما الأصل . . . ألقصة أم لغتها ؟ وندور لنعود الى سؤالنا الأول . القصة هى الموهبة وهى الخلق ، أعنى انها نتاج الموهبة وهى الثمرة أى الخلق الذى ينتهى اليه الفنان الموهوب ، واللغة اكتساب وتحصيل وأنت واصل بالدرس والمران الى هذه اللغة ولو طالت الشقة ، ولكنك لن توجد من العدم موهبة ولن تخلق من العظام الرميم حياة ولن تهشم رأس انسان لترفع عقلا سقيما وتضع مكانه عقلا خالقا ولو جهدت ولو استعديت كل قوى البشر ، انما كان الاجدر بك والامر كما ترى أن تنظر الى الموهبة لتقدرها قدرها أولا ثم تنظر بعد ذلك فى الاكتساب والتحصيل ؟ ! وهل تحرم على هذا العامى الجاهل يأتيك من عرض الطريق بمحض الفطرة والعقل الخالق بما لا يستطيعه العالم الجهبذ بعد الجهد والاعياء ؟ ! نقول هل تحرم على الاول الخلق لمجرد انه جاءك فى ثوبه الطبعى ولم يحاول ان ينمقه بيد الصناعة ؟ ! وهل تأخذ عليه انه ينبيك الخبر كما وقع ويحدثك بالامر على لسان أهله كما تحدثوا به ؟

لست أتحدث هنا عن مذاهب الفن المتعددة فيما نحن بصدده ، وقد أعلم ان الاستاذ توفيق الحكيم قد يحتج بانه ينقل الحياة كما هى ويرد عليه بان الفن ليس فى نقل الصور نقلا فوتغرافيا وان يكن لهذا جماله ووقعه ، وقد يحتج الاستاذ المؤلف بان أشخاص قصته لم يكن لهم ليتحدثوا غير هذه اللغة التى أدار الحوار عليها لانها لغتهم الطبيعية ، بل ولأن هذه هى اللغة التى تحدثوا بها بالفعل لا أكثر ولا أقل ، ويكون من العسير أن تناقش المؤلف فى هذا القول ، لندع كل هذا الآن ولنحصر الجدل فى قضية واحدة فاننا اذا تفرعنا بالقول هنا وهناك ذهب الاصل واشتبكنا فى فروع وفروع

للفروع لانهاية ولا آخر لها، وضعنا وضاع الحق بيننا ، وهذه الدائرة التى نريد ان نحصر فيها القول يجمعها هذا السؤال ولنكرره للمرة الثالثة ولو اعدناه للمرة الثالثة بعد المليون ماضجرنا

أيهما الاصل ... القصة ؟ أم لغتها ؟ ! ان كانت القصة هى الاصل وهى الجوهر وهى مدار الحديث وجب أن تكون عناية النقد موجهة اليها ، وان كانت القصة القشور واللغة الجوهر فهذه مسألة أخرى

ولنفرض ياسيدى ان لغة «عودة الروح» كانت هى الانجليزية أو الفرنسية أو الفارسية ، فماذا ؟ ماذا بالله ياأبا الاسود الدؤلى ؟ هل أخذت « احتكارا » باللغة العربية فما يكتب انسان الابها ولا يدور حوار مابين القطبين الا على أوزانها وضروبها ونحوها وصرفها ؟ ولنفرض ان العامية من العربية كالفرنسية أو الانجليزية منها أفلو أن توفيق الحكيم كتب « عودة الروح » بأية لغة من لغات العالم كنا نرفضها ونأبى ان نعترف لكاتبها بجهد أو فضل لمجرد انه كتب قصته بهذه اللغة أو بتلك ؟ افلا نقرأ القصص فى لغات العالم فنعجب بها وهى ليست باللغة العربية ؟ لست اسأل هازلا أو متندرا بل انى لجاد كل الجد ، فأذا كنا نفعل ذلك فما بالنا نقف من قصة بالعامية هذا الموقف ؟ ولنفرض ياسيدى ان توفيق الحكيم لايعرف اللغة العربية أفنكسر هذا القلم الذهبى ونخرس هذا اللسان الحكيم ونقبر هذا العقل الخلاق لمثل هذا السبب ؟ بل ولآلف سبب مثل هذا السبب ؟ ! واى أديب سلمت لغته من الشوائب وهاهو أحد أئمة النقد يصم اسلوب احد أئمة الكتاب بانه لايسلم من الابتذال وكاتب آخر ينال من كاتب معروف ويقول فيه مالم يقل عشر معشاره فى توفيق الحكيم ؟ !

وأيهما اجدى على الدنيا وأجدى على الادب ، كاتب ذخيرته الفاظ وكلمات ام كاتب ملء اهابه الحياة وملء جعبته الدنيا يخرج لنا منها عقله الموهوب زادا دسما وطعاما لنا فيه شبع ورى ؟ لو اجتمع الكاتبان لكانا أمل الدنيا وأنشودة العالم فاذا لم تشأ حكمة ازليه الا أن تفرق بينهما فأيهما تأخذ وأيهما ندع ؟

ان الادب غاية ، واللغة وسيلة ، وحرام ان نهدم الغاية من أجل الوسيلة ، ونغالى من قدر هذه الوسيلة حتى ليتعذر علينا بلوغ هذه الغاية

محمد على حماد

« الرسالة » :— كلام الاستاذ أشبه شيء بالدعابة ، فان أكثره لا يجرى على قواعد الادب ولا أصول الفن ، ولعمري كيف نستطيع أن نفصل المعنى عن اللفظ أو القصة عن اللغة أو الموضوع عن الشكل وليس لأحد منهما وجود فى ذاته ؟ فالقصة قبل أن تلبس اللغة لا تسمى قصة ، والألفاظ قبل أن تؤدى المعانى لا تسمى لغة ؟

مكتبة الطالب

داخل أسوار الجامعة المصرية — خلف كلية الآداب

تبيع الكتب الأفرنجية والعربية والمجلات العلمية اللازمة لطلبة كليات الجامعة — وبها قسم خاص به مختلف الادوات الكتابية .

يصدر قريباً

ذكرى ابن خلدون

عرض نقدى لحياته

بقلم

الاستاذ محمد عبد الله عنان

الصحة والقوة

وجسم يعجب وعقل يهيئ للنجاح

النحافة . السمنة . قصر القامة . العادة السرية . الاحتلام . الضعف الجنسى . الإسهال . ضعف المعدة . القلب . الصدر . الأعصاب . تقوس الرجل . الخجل . ضعف الذاكرة والإرادة . قلة الثقة فى النفس وكل الأمراض المزمنة والعيوب الجسمانية والعقلية يمكن علاجها فى المنزل علاجا سريعا أكيدا بتمرينات خاصة .

كل شيء مشروح فى

كتاب الجسم الكامل وكتاب العقل الكامل

١٠٠ صفحة مجانا فقط ١٠ مليمات طوابع بوستة للخارج

(قسيمة مجاوبة فى الخارج) عين الكتاب الذى تطلبه واكتب باسم

محمد فائق الجوهرى

مدير معهد التربية البدنية والعقلية

١١ شارع سنجر السرورى فاروق مصر

تليفون ٥٠٣٥٩